التوافق الزواجي والعنف الاسري

رؤية ارشادية

د. طالب عبد الرضا

المقدمـــة

لكي نكتب لرحلة الزواج الاستقرار الموفق ما أحوجنا الى ثقافة زوجية – نفسية – تربوية – اجتماعية تستلهم نهج شرع الله ورسوله وأئمة اهل بيته عليهم وعلى الرسول أفضل الصلاة والسلام في تكوين اسرة المستقبل ، وفي أساليب المعاملة بين الزوجين بشكل يحقق الغاية العظمى من الزواج وتمتنع اسباب الخيانة والغدر .

وفي علم اليوم هناك الكثير من القضايا المطروحة التي تعاني منها الاسرة حيث أصبح موضوعها والتوافق الاسري من الموضوعات المعقدة والمتشعبة التي أولت اهتمام العاملين في مجال العلوم الاجتماعية والنفسية والقانونية والاقتصادية والتربوية وحتى في مجال السياسة وهي في ذات الوقت حديث رجال الدين ومحط اهتمامهم ، وقد أولت الهيئات والمنظمات الدولية والانسانية اهتماماً بذلك ومنها على سبيل المثال الاعلان العالمي لحقوق الانسان ، والميثاق الدولي للحقوق المدنية والسياسية ، والبيان العالمي لحقوق الطفل ، والعقود المتعلقة بحماية قضايا الزواج ، والحد الأدنى لسن الزواج وتسجيل العقود الواقعة وكل واحدة من تلك الوثائق تشير الى الأبعاد التي تتعلق بقضية الأسر في الوقت الحاضر ، ورغم كل ذلك تتعرض المرأة والأطفال الى العنف بحكم عملية تراتب بناء القوة داخل الاسرة بأشكاله المختلفة وبمستوياته وآلياته المتعددة .

والأسرة ليست جماعة اجتماعية أساسية ، ونظاماً اجتماعياً رئيسياً فحسب ، بل إنها مصدر الأخلاق والدعامة الأولى لضبط السلوك والإطار الذي يتلقى فيه الانسان أول دروس الحياة الاجتماعية ، لذلك كان من الضروري أن تسودها علاقات الود والتفاهم والقواعد التي تساعد على استقرارها ونجاحها في مهامها العديدة ، بيد انه من الملاحظ شيوع صور متعددة من العنف داخل الاسرة تزعزع استقرارها وتفرغها عن مضمونها وتحيلها الى وحدة لإنتاج المجرمين والحصيلة التي نستطيع ادراكها من خلال نظرة واحدة هي مدى البلاء الذي أصاب بعض الأسر العراقية ، وكيف انحرفت عن مسارها الصحيح ، والمعضلات التي أخذت بخناق هذه المؤسسة الاجتماعية ، فترى المرأة وزوجها يبدوان في الظاهر الى جانب بعضهما لكن حياتهما في الواقع تشبه حياة غريبين جمعهما القدر لكي يعيشا معاً .

أساليب المعاملة الزوجية :

أصبح الاهتمام بالبحوث المتعلقة بالمعاملة الوالدية واسعاً في الوقت الذي لم تلقِ فيه أساليب المعاملة الزوجية الإهتمام الكافي الذي يتناسب وأهمية المشكلة ، ومن خلال دراسة أوجه المعاملة الزوجية وانعكاسها على أساليب المعاملة الوالدية وجد إن الزوجان اللذان يتبادلان فيما بينهما أساليب معاملة زواجية سوية إنهما سيتبعان مع أبنائهما أساليب معاملة والدية سوية والعكس صحيح ، وهذا ينعكس ايجاباً وسلباً على نفسية الأبناء .

ويذكر الدكتور محمد محمد بيومي (١) إن بعض الباحثين يرون إن الفرد المريض ما هو إلا سفير لأسرته المريضة ، وإن لجوئه للعلاج النفسي والاستشارة النفسية بمثابة طلب العون والعلاج لأسرته التي هي المريض الحقيقي .

كذلك يرى أدلر (٢) من خلال ملاحظاته إنه من يشعرون بالنقص يحطون من قدر غيرهم . ويؤكد روجرز (٣) إن هناك أرتباطاً موجباً مرتفعاً بين تقبل الفرد لذاته وتقبلهُ للآخرين .

وربما يتساءل الآخرين هنا إنهُ لماذا تتحمـــل المرأة هذا العنف ، ولماذا تصمت ولا تقاوم عندما يقع عليها العنف ، وعندما تسيء معاملة الزوج لها ..... حيث يؤكد الدراسات الاجتماعية بهذا الخصوص إن هناك أسباب عدة تكمن وراء حالة الصمت التي تكتنف المرأة المعنفــة وتغلف على سلوكها مظاهر العنف الموجه ضدها منها : الخوف من تهديد الزوج الذي يؤثر على تحطيم اسرتها وأولادها كونها تعتمد اعتماداً كلياً عليه من الناحية المادية والسكن لعدم توفر المصادر المتاحة لها مثل التعليم ، والوظيفة ، والدخل ، أو أي مصادر اخرى أجتماعية ، أو مادية توفر لها الحماية والأمان عندما تفكر في المقاومة تجاه أساليب المعاملة السيئة التي تتعرض لها من الزوج .

كذلك المرأة في المجتمعات الشرقية ومنها العراق هي ضحية المواقف التقليدية التي تنظر الى المرأة على إنها ملك الرجل (٤) . وهي بحاجة الى توجيه ، لذلك تنظر المرأة ضمن هذه الرؤى والموروثات الى العنف كحالة طبيعية وتقوم بتبريره والتعاطي معه كنمط شرعي مقبول يقوم به الزوج لمصلحة الزوجة ، وهذه المواقف بحد ذاتها تعد من المحركات التي تشجع المرأة على أن تكون سلبية وتعمق النظرة الى المرأة كمصدر للتوتر والصراع وإشاعة اجواء النكـد داخل الاسرة ، وإن المرأة ضمن هذه المعطيات هي التي تستفز وتورط الرجل وتدفعه لممارسة العنف ، لذلك فهي تفضل السكوت والبقاء على ماهي عليه بسبب الخوف والاعتقاد بأنهُ لا مجال للنجاة وإن لا خيار لها سوى البقاء (وهذا ما يعرف بمتلازمة المرأة المعنفــة) .

التوافق الزواجي :

لكي يتحقق التوافق الزواجي والحياة الزوجية السعيدة لا بد للزوجين أن يعملا معاً على تنمية الأساليب الصحيحة في التعامل مع الحرص على تجنب أسباب الاحتكاك ومناسبات الاختلاف الشخصي ، وبصفــة عامة فإن التوفق الزواجي يريدهُ الانسان هدفاً ويتخذهُ وسيلة لتحقيق هذا الهدف وهو يستهدف الرضا عن النفس وراحة البال والاطمئنان نتيجة الشعور بالقدرة الذاتية على التكيف مع البيئةح والتفاعل مع الآخرين وحسن التعامل مع الغير .

ويعرف التوافق الزواجي بأنهُ واحداً من أهم مجالات التوافق الذي يبنى على وجود زوجين لديهما ميل لتجنب أو إعادة حل المشكلات وتقبل المشاعر المتبادلة والمشاركة في المهام والانشطة المألوفة وإنجاز التوقعات الزواجية لكل منهما (٥) .

لذلك فإن الحياة الاسرية هي من الأمور الطبيعية التي تستند لنظام الخلق وليست نتيجة العادة أو التمدن ، وعليه نؤيد النظرة التي تنادي بالفصل بين الحياة الاسرية والحياة الاجتماعية لأن أموراً في الطبيعة ونظام الخلق بمشيئة الله تبارك وتعالى وجدت وجعلت الانسان وبعض الحيوانات ايضاً يميلون فطرياً نحو الحياة الاسرية وتكوين الاسرة وانجاب الاطفال .

فالحياة الاسرية هي حياة طبيعية مائة بالمائة أي إن الانسان خلق اسرياً بالطبـع (٦) . ويترتب على ذلك بأن الحقوق الناتجة عنها أي عن هذه الحياة الاسرية هي حقوق طبيعية فطرية ، ونتيجة الفكرة نصل الى أن النظام الذي يستند على الطبيعة والخلق يعتبر أمراً ذاتياً يقوم على اساس قوي متين بعكس الأنظمة التعاقدية التي تنهار بمجرد ظهور عقود اخرى جانبها . والتوافق الزواجي لكونه يقوم على اساس علاقة متبادلة بين زوجين لكل منها تنظيمه الخاص للشخصية من حيث سماتها وإطارها المرجعي الذي يحدد الميول والاتجاهات والقيم وأساليب المعاملة الزوجية لذا لا تخلوا الحياة الزوجية السعيدة من بعض الاختلافات التي تتحول بالتفاهم والمصارحة الى مدعم جيد ومنشط للتوافق بين الزوجين على قدر نجاح الزوجين في تحقيق هذه المهمة يكون التوافق الزواجي .

وأخيراً لابد من الاشارة الى مقولة الفيلسوف الليبرالي " جون ستيوارت مل " من سلسلة مجموعته (الفيلسوف والمرأة) كتاب (استعباد النساء) الذي يدافع فيه عن حرية المرأة وحقوقها السياسية ويدين المبدأ الذي ينظم العلاقات بين الجنسين على أساس التبعية واسترقاق النساء الذي يعوق المجتمع ويمنع تقدمه وتطوره ، حيث يكشف مل بعمق نافذ إن هذا المبدأ يستند الى المشاعر والعواطف والانفعالات أكثر مما يستند الى العقل والمنطق ومن هنل يذكر مل صعوبة قضية تحرير المرأة لأنها تشبه في هذه الزاوية قضية تحرير الزنوج في الولايات المتحدة الامريكية ، ويرى إن استعباد النساء ليس سوى امتداد لشريعة الغاب التي كان الرجل يعتمد فيها على قوته البدنية (ويسخر مل) من الذين يدافعون عن القوة البدنية عند الرجل ويعتبرونها (ميزة) يتمتع بها الرجل دون المرأة ويتساءل في تهكم ، أتراهم حقاً في استعداد للدفاع عن القوة البدنية عند الفيل ويعتبرونها بالمنطق نفسه (ميزة) وعلامة تفوق يتمتع بها الفيلة دون غيرها من الموجودات البشرية إنهُ لمن الخُلق المحال أن تبقى على هذه الخرافات أو أن تتمسك بها (٧) .

التوافق الزواجي وحسن الاختيار

من المؤكد ‘ن الارتباط الطبيعي بين الزوجين ودور كل منهما في اشلع رغبات شريكه في امور تندرج في اطار تكاملها وتجعل كل من الزوجين بحاجة بايلوجية ونفسية واجتماعية الى الآخر ، إذ بُعـد الواحد منهما جزء متمم للآخر الثاني وإن هذا الارتباط والحاجة المتبادلة وآثارها المختلفة تؤثر في جميع مجالات الحياة الفردية والاجتماعية .

وفي تفسير الآية الكريمة حسب رؤية العلامة الطبطبائي في سورة النساء الآية (٢١) إن المودة والرحمة بين بين الزوجين من الألطاف الإلاهية الحكيمة إذ يقول العلامـــة (إن كل واحد من الرجل والمرأة مجهز بجهاز التناسل تجهيزاً يتم فعله بمقارنة الآخر ، ويتم بمجموعهما أمر التوالد والتناسل ، وكل واح منهما ناقص في نفسه ، مفتقر الى

الآخر ، ويحصل من المجموع واحد تام له أن يلد وينســل ، ولهذا النقص والافتقار يتحرك الواحد منهما الى الآخر ، حتى إذا اتصل به سكن اليه ، لأن كل ناقص مشتاق الى كماله ، وكل مفتقر مائل الى ما يزيل فقره وهذا هو الشق المودع في كل من هذين القرينين ومن اجل موارد المودة والرحمة في المجتمع العائلي فإن الزوجين يسعيان الى رحمة أولادهما الصغار لما يربيان من ضعفهم وعجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيوية . فيقومان بواجب العمل في حفضهم وحراستهم وتغذيتهم وكسوتهم وإيوائهم وتربيتهم ولولا هذه الرحمة لانقطع النســل ولم يعش النوع قط) (٨) .

ونعتقد إن من مبررات نجاح ذلك هو حسن الاختيار ، حيث تعتبر مرحلة اختيار الفتاة من أهم المراحل المؤثرة في مصير الحياة الزوجية ، فالاختيار الزوجي هو الركيزة الأساسية التي تنسأ عليها بناء الاسرة وإذا حصــل ضعف في هذا الاختيار يســبب ضعف الاطلاع ، والتسرع ، وعدم القيام بدراسة وافية في مرحلة الاختيار ، والثقة المفرطة في رئي الوسطاء وعد الاهتمام الكافي بنقاط الضعف أو محاولة تبريرها وتعظيم بعض الخصائص غير الهامة ، وعدم الالتفات الى الخصائص الضرورية ، والغفلة الاختيارية : كل ذلك عوامل هدم في السعادة الزوجية ، طبعاً عملية الاختيار تخضع لسلوكيات وأساليب تتناسب والمكونات الثقافية والاخلافية للمجتمع ، ففي الغرب مثلاً أصبحت المساكنة قبل الزواج أحد أهم الوسائل التي يلجأ اليها الشبان في اختيار الزوجة وطبعاً ذلك مرفوض قطعاً في مجتمعاتنا الشرقية والاسلامية . وقد شارت بعض الدراسات الى أن المساكنة لا تؤثر على الملائمة الزوجية ولا في العلاقة العاطفية القريبة التي تحمل سعادة الأفراد ، وإذا كان لها من تأثير فإنهُ قليل ولا يذكر ، وقد اظهرت الشواهد إن الأزواج الذين كانوا يعيشون مع بعضهم قبل الزواج أقل نصيباً في الوفاق الزواجي ممن يعيشوا هذه الحالة ، بل كان نصيبهم سعادة اقل وتكاليف أكبر (٩) .

المصادر :

(١) د. محمد محمد بيومي خليل ، سايكولوجية العلاقات الزواجية ، دار قباء للثقافة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٩، ص ١٦ .

(٢) د. أحمد عزت راجح ، أصول علم النفس الحديث ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧، ص ١١٢ .

(٣) د . أحمد عزت راجح ، نفس المصدر ، ص١١٨ .

(٤) د . منير كرادشة ، العنف الاسري ، سيسيولوجية الرجل العنيف والمرأة المعنفة ، عالم الكتب الحديثة ، الأردن ، ٢٠٠٩ ، ص ١١٦ .

(٥)LOCL , H,J , WILLIAM SON r. G ; MARITAL ADIJUSTIMANT ARTAR Analysis study. American sociological review vol. 23 , 1985 .

(٦) حبيب الله طاهري ، مشاكل الاسرة وطرق حلها ، دار الهادي للطباعة والنشر ، ط٢ ، ٢٠٠٣ ، بيروت ، ص١٨ .

(٧) جون ستيوارت مل ، (بقلم الناشر) الفيلسوف والمرأة ، كتاب استبعاد النساء ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٨ ،

(٨) الشيخ حسين بستان (النجفي) ، الإسلام والاسرة - دراسة مقارنة في علم الاجتماع الاسري ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ص٢٢٩ .

(٩) الشيخ حسين بستان نجفي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٣٣ .

.